الفصل الخامس

أثر التطور الدلالى فى حدوث اللحن

أثر التطور الدلالى فى حدوث اللحن

التطور الدلالى :

تطور الدلالة ، أو تغير معانى الكلمات ، ظاهرة شائعة فى جميع اللغات أكدها الدارسون لمراحل نمو اللغة وأطوارها التاريخية « فاللغة ليست هامدة أو ساكنة بحال من الأحوال ، بالرغم من أن تقدمها قد يبدو بطيئاً فى بعض الأحيان » (١) وقد أثبت اللغويون المحدثون أن اللغة فى تطورها الدلالى — كتطورها الصوتى — تسير وفق اتجاهات عامة ، وفى نماذج رئيسية تمكن الدارسون من تحديد معالمها وتعرف خطوطها ، حتى انتهوا إلى ما سموه « قوانين المعنى » وإن كانت هذه القوانين لا تزال بحاجة إلى مزيد من البراهين الواقعية ، قبل الحكم على صحتها ومدى اطرادها ، حكماً سليما (٢) » .

ومن غير شك ، وقع هذا التطور الدلالى فى اللغة العربية ، قديماً وحديثاً كما وقع فى غيرها من اللغات ، فمعانى الألفاظ التى كانت مستخدمة فى العصر الجاهلى لم تبق جامدة بعد الإسلام ؛ بل لحقها تغير قليل أو كثير . . . وهذا ما حدث فى العصور التالية أيضاً ، نتيجة لتطور المجتمعات والحاجة إلى التجديد وإضفاء معان جديدة على كلمات قديمة ، وفاء بحاجات الحياة المتطورة ، وغير ذلك من أسباب التطور الدلالى (٣) .

ولكن اللغويين العرب ، بدافع الحرص الشديد على الحفاظ على اللغة وقفوا

---

(١) دور الكلمة فى اللغة ؛ تأليف : ستيفن أولمان وترجمة الدكتور كمال بشر : ١٥٦

(٢) المرجع السابق : ١٩٢ .

(٣) راجع عوامل التطور الدلالى بالتفصيل فى : دلالة الألفاظ للدكتور ابراهيم أنيس : ١٣٠ — ١٤٧ ودور الكلمة فى اللغة : لستيفن أولمان : ١٦٣

من هذا التطور الدلالى موقفهم من التطور الصوتى ، والنحوى ، والصرفى ، أى أنهم وضعوا حدوداً زمانية ومكانية ، ينتهى عندها قبول الاستعمال الجديد الذى سموه مولّداً لأنه لم يسمع عن العرب الذين يحتج بأقوالهم . . . ولم يكن لهذا الموقف أن يؤثر فى الحركة الدائبة لتطور دلالة الألفاظ . . . ووضح هذا التطور فى المستعمل من الكلام على ألسنة العامة والخاصة ، فانبرى أصحاب حركة تنقية اللغة يصفون الاستعمال الجديد بأنه « لحن » ، وضمنوا كتبهم أبواباً سموها : « ما وضعوه فى غير موضعه » أو « ما جاء لشيئين أو لأشياء فقصروه على واحد » أو « ما جاء لواحد فأدخلوا معه غيره » أو « المزال والمفسّد » .

وقد ذكر ابن فارس أن أى تغير يطرأ على المعنى موقوف على ما سمع ، إذ قال بعد أن أورد طائفة من الألفاظ التى غيرت العرب معانيها : « وكل ذلك عندنا توقيف على ما احتججنا له » (٤) .

واضطر اللغويون المعاصرون ، وهم يحسون وقع القيود التى وضعها اللغويون القدماء ، ويرون الحاجة ماسة إلى تحرير اللغة فى النطاق الذى لا يخرج بها عن سنن العربية وأقيستها ، اضطروا إلى قبول المولد الذى جرى على أقيسة كلام العرب من مجاز أو اشتقاق أو نحوهما ، كاصطلاحات العلوم والصناعات وغير ذلك ، وهو قرار لمجمع اللغة العربية (٥) .

وهذا الذى لجأ إليه المجمع اللغوى ؛ تؤيده قوانين التطور الدلالى الذى يتم فى حدود العلاقة بين المعنى المنقول منه والمنقول إليه ، والتطور الذى يتم بسبب هذه العلاقة قد اعترف به بعض اللغويين ، على الرغم من تشددهم فى تخطئة العامة فى كثير مما يمكن تخريجه . . .

---

(٤) الصاحبى : ٩٦ .
(٥) مجموعة القرارات العلمية للمجمع : ٦

اعتراف القدماء بالتطور الدلالى :

فهذا هو ابن قتيبة — وهو من المتشددين — يرد على من خطّأ العامة فى قولهم : « خرجنا نتنزّه » إذا خرجوا إلى البساتين. فيقول : « وكان بعض أصحاب اللغة (٦) يذهب فى قول الناس : خرجنا نتنزه، إذا خرجوا إلى البساتين إلى الغلط ، وقال : إنما التنزه التباعد عن المياه والريف. ومنه يقال : فلان يتنزه عن الأقذار . أى يباعد نفسه (٧) عنها، وفلان نزيه كريم إذا كان بعيداً عن اللوم . وليس هذا عندى خطأ ، لأن البساتين فى كل مصر وفى كل بلد إنما تكون خارج المصر ، فإذا أراد الرجل أن يأتيها فقد أراد أن يتنزه ، أى يتباعد عن المنازل والبيوت . ثم كثر هذا واستعمل ، حتى صارت النزهة القعود فى الخضر والبنان(٨) .

وأبو بكر الزبيدى الذى يخطىء عامة الأندلس فى قولهم للزق الذى ينفخ به الحداد : « كير » لأن الكير هو موقد النار الذى يبنيه الحداد، يروى قول أبى نصر (أحمد بن حاتم) وأبى عمرو الشيبانى : إن الكير هو الذى ينفخ به الحداد ، ثم يقول : « وهو مما لا يصح عندى إلا على وجه تسمية الشىء بما قرب منه، وما كان من سببه، كما قالوا : راوية للمزادة، والراوية البعير الذى يستقى عليه الماء (٩) ، ولو أن الزبيدى أخذ بهذا المبدأ لما حكم بخطأ العامة .

---

(٦) لعلة يقصد ابن السكيت : فالتصويب فى اصلاح المنطق : ٢٨٧ .

(٧) فى اصلاح المنطق : اى يتباعد عنها .

(٨) ادب الكاتب : ٣٤ .

(٩) لحن العامة : ٢٣١ وراجع معه : الحيوان للجاحظ : ١ /٣٣٣ (ط . ثانية) .

مظاهر التطور الدلالى وتفسير اللحن فى ضوئها :

فى تفسيرنا لحدوث اللحن نتيجة للتطور فى الدلالة ، سنبين مظاهر هذا التطور كما حددها اللغويون المحدثون ، ثم نخرج عليها ما يمكن تخريجه من استعمالات وردت فى الكتب الثلاثة أو بعضها ، وسميت لحناً ، لأنها استعملت فى معنى غير الذى وضعت له ، أو غير الذى استعملها فيه العرب الذين يعتد باستعمالهم :

أستطاع اللغويون المحدثون ، بعد دراسة التطور الذى يطرأ على معانى الكلمات فى لغات مختلفة، أن يحصروا التطور الدلالى فى مظاهر رئيسية ، تصدق على جميع اللغات وهى :

١ — المظهر الأول : التضييق فى المعنى أو تخصيص العام :

وذلك بأن يكون المعنى الأول شاملا أفراداً كثيرين ، فيضيق مجاله ، ويتخصص بحيث يصبح مقصوراً على أفراد أقل عدداً ، ويمكن أن يطلق على هذا المظهر اسم « تخصيص العام » ، وذلك مثل كلمة meat التى كانت فى الإنجليزية تعنى « الطعام » ثم تخصصت فى الدلالة على اللحم (١٠) .

وكلمة poison تطور معناها من الدلالة على الجرعة من أى سائل إلى الدلالة على السم (١١) .

وكلمة sharf فى الروسية كانت تعنى أولا العقوبة بوجه عام ، ثم تطورت دلالتها إلى معنى الغرامة المالية ، ليس غير (١٢) .

وكلمة الصلاة التى كانت تعنى فى الأصل الدعاء: تخصصت بعد ظهور الإسلام فى معنى العبادة بشروطها وكيفيتها ، ولفظ الحج كان معناه: مجرد

---

(١٠) دلالة الالفاظ للدكتور ابراهيم أنيس : ١٥٠

(١١) دور الكلمة فى اللغة : ١٦٥ .

(١٢) علم اللغة للدكتور محمود السعران : ٣٠٩

القصد إلى معظَّم ، ثم تخصص فى القصد إلى بيت الله الحرام فى أيام معلومة ، وأداء شعائر محدودة ،وكلمة السَّبْت أصل معناها : الدَّهْر ، ثم خصت بأحد أيام الأسبوع . والسِّبت (بكسر السين) :كل جلد مدبوغ ، ثم خص بالمدبوغ بالقرظ (١٣) .

وإذا سلمنا بهذا النوع من التطور الدلالى الذى يقع فى جميع اللغات أمكن أن نخرج عليه أمثلة كثيرة تخصص معناها ، ثم حكم عليها أصحاب كتب التصويب اللغوى بأنها لحن ، لأنها لم ترد بهذا المعنى عن العرب الفصحاء .

فمن ذلك أن أهل الأندلس وصقلية يطلقون اسم الريحان على الآس خاصة . والريحان أعم ،إذ يشمل كل نبت طيب الريح كالورد والنعنع والنَّمَّام . ومنه تخصيص أهل بغداد لليقطين حيث يدل عندهم على القرع وحده . وهو فى اللغة كل شجر ينبسط على الأرض ولا يقوم على ساق ، كالقثاء والبطيخ والقرع . ومن ذلك ما اشتركت فيه البيئات الثلاث من تخصيص الإسكاف بمعنى صانع الخفاف ،وهو فى العربية اسم لكل صانع (١٤) . ومن تخصيص العام أن لفظ « تنوير » لا يطلق عند عامة الأندلس إلا على تنوير الآس خاصة . والتنوير نور الشجر كله . ومنه تخصيص عامة الأندلس وصقلية لفظ الخمار بحيث يدل على ما تغطى به المرأة رأسها من شقاق الحرير ، فإن لم يكن من حرير لم يقل له : « خمار » . مع أنه يطلق على كل ما غطى به الرأس سواء أكان من الحرير أم من الكتان أم من غيرهما . . .

---

(١٣) المزهر : ٤٢٧/١ ، ٤٢٨ .

(١٤) هذا رأى أصحاب الكتب الثلاثة التى بين أيدينا . وراجع أيضا : المزهر : ٤٢٦/١ ، والصحاح (سكف) . ويقول الجوهرى : « وقول من قال : كل صانع عند العرب اسكاف فغير معروف » . وذهب الجوهرى فى قول الشماخ :

لم يبق الا منطق وأطراف وشعبتا ميس براها اسكاف

اى نجار ، الى أنه على التوهم لأن النجار لا يقال له « اسكاف » . أى أن الاسكاف — فى رأى الجوهرى — موضوع لصانع الخفاف أصلا ، لا لكل صانع .

ومنه عند أهل صقلية أنهم يخصون الخيزران بضرب من العود ، والخيزران في اللغة : كل عود لين ينثنى ، ويقصرون اسم الملحفة على ما كان مصنوعاً من القطن ، والملحفة عام يشمل كل ما التحف به . ويخصون الضأن باسم الغنم ، والغنم اسم للضأن والمعز جميعاً .

وعلى ذلك تخرج بقية الأمثلة التى وضعناها تحت عنوان « تخصيص العام » عند دراستنا للظواهر اللغوية فى كل من الكتب الثلاثة (١٥) .

٢ — المظهر الثانى : توسيع المعنى أو تعميم الخاص :

وذلك حيث تستعمل الكلمة الدالة على فرد أو على نوع خاص من أفراد الجنس أو أنواعه ، للدلالة على أفراد كثيرين أو على الجنس كله ، ويمثل « فوندريس » لهذا المظهر بما يقوله الطفل الباريسى عند ما يرى نهرًا « أرى سيناً » ، وهذه هى حال الأطفال الذين يسمون جميع الأنهار باسم النهر الذى يروى البلد الذى يعيشون فيه (١٦) .

ويمثل له « ستيفن أولمان » بالكلمة الإنجليزية arrive فإنها انحدرت عن الأصل اللاتينى adripare بمعنى يصل إلى الشاطىء ، وهذه الأخيرة ترجع إلى ripa أى شاطىء . فهذه الكلمة كانت فى الأصل مصطلحاً بحرياً ، لا يجوز استعماله إلا فى معنى الوصول إلى الميناء . أما الآن فقد اتسع نطاق استعمالها ، حتى أصبحت تشمل عددًا ضخماً من أنواع الوصول ، بأية وسيلة (١٧) ، والكلمة الإنجليزية barn كانت تدل فيما مضى على « مخزن الشعير » ، ولكنها الآن تدل على مخزن أى نوع من أنواع الحبوب ،

---

(١٥) راجع الباب الثانى من هذا البحث .

(١٦) اللغة لفوندريس ، ترجمة عبد الحميد الدواخلى ومحمد القصاص : ٢٥٨ .

(١٧) دور الكلمة فى اللغة (الترجمة العربية) : ١٦٥ .

وعلى مخزن ما سوى الحبوب أيضاً (١٨) .

ومن هذا التعميم ، فى اللغة العربية ، أن كلمة البأس فى أصل معناها كانت عامة خاصة بالحرب ، ثم أصبحت تطلق على كل شدة (١٩) . وأصل الوِرْد إتيان الماء ، ثم صار إتيان كل شيء وِرْداً ، وأصل القَرَب طلب الماء ثم صار يقال لكل طالب : هو يقرب كذا أى يطلبه (٢٠) . والنجعة أصلها طلب الغيث ، ثم عممت فى كل طلب . وأصل الرائد طالب الكلأ ، ثم عمم لكل طالب حاجة (٢١) ، ومنه إطلاق اسم الورد على كل زهر ، وهو فى اللغة خاص بالأحمر . وفى إطلاق الوردة على كل زهرة يذكر « فوندريس » أن اللغات السلافية الجنوبية تعمم اسم الوردة ليشمل كل زهرة ، كما فى الصربية والكرواتية ، ومثلها بعض اللهجات الألمانية ، ثم حدث هذا أيضاً فى بعض اللهجات الإيطالية واضطرت إلى أن توجد للوردة اسماً جديداً (٢٢) .

وفى ضوء ما سبق يمكن أن يخرج قول عامة المشرق للرفقة المسافرة أو العائدة : قافلة ، وأصلها من قفل أى رجع ، فعمم المعنى بعد أن كان خاصاً . وهذا التعميم قديم ، ذكره ابن قتيبة فى « أدب الكاتب » (٢٣) .

ومنه عند أهل الأندلس وصقلية : إطلاق الاستحمام على الاغتسال سواء أكان بالماء الحار أم البارد . والاستحمام أصله الاغتسال بالحميم أى الماء الحار . وقد اعترف الجوهرى باستخدام الاستحمام فى الحالين ، قال :

---

(١٨) علم اللغة للدكتور محمود السعران : ٣٠٩ .
(١٩) المزهر : ٤٣١/١ .
(٢٠) الصاحبى : ٩٦ .
(٢١) المزهر : ٤٢٩/١ ، ٤٣٢ .
(٢٢) اللغة (الترجمة العربية) : ٢٥٨ ، ٢٥٩ .
(٢٣) ص ٢٠ .

« والحميم الماء الحار والحميمة مثله . وقد استحممت إذا اغتسلت به ، هذا هو الأصل ، ثم صار كل اغتسال استحماماً ، بأى ماء كان » (٢٤) .

ومن ذلك أن أهل الأندلس يعممون دلالة « الباع » بحيث يشمل أوسع الخطا ، وهو خاص بما بين طرفى يدى الإنسان .

ويعد من هذا النوع ، أى تعميم الدلالة ، طائفة من الألفاظ يعدها بعض اللغويين مترادفة ، ويلتمس بعضهم بينها فروقاً فى الدلالة ، فإذا وجدوا العامة يعممون الدلالة « لأن الناس فى حياتهم العادية يكتفون بأقل قدر ممكن من دقة الدلالات وتحديدها ، ويقنعون فى فهمهم للدلالات بالقدر التقريبى الذى يحقق هدفهم من الكلام والتخاطب» (٢٥) ، أقول : إذا وجدوا العامة يعممون حكموا على سلوكهم اللغوى بالخطأ .

وقد عد بعض أصحاب الكتب الثلاثة ، من هذا النوع ، أعنى تعميم الدلالة ، طائفة مما تقوله العامة ، ليس من المؤكد أن فيها تعميماً بعد تخصيص . والسبب فيما ذهب إليه هؤلاء اللغويون أنهم يميلون إلى الرأى القائل بوجود فروق لغوية بين كلمات يرجح أن أصلها اللغوى واحد ، كالحث والحض ، والنَّهش والنَّهس ، والقبض والقبص ، أو أن معناها واحد ، كالغيث والمطر ، وفيما يلى توضيح ذلك :

١ — لا يفرق عامة بغداد بين الحث والحض ، ويرى ابن الجوزى أنهم مخطئون فى ذلك ، لأن الحث يكون فى السير والحض خاص بالخير . ونقل قول الخليل : إن الحث يكون فى السير والسوق ، والحض فيما عداهما (٢٦) ،

---

(٢٤) الصحاح (حمم) .
(٢٥) دلالة الألفاظ : ١٥١ .
(٢٦) تقويم اللسان : ١١٨ .

على أن لغويين آخرين لا يفرقون بينهما ، كما روى أبو الطيب اللغوى (٢٧) وغيره .

٣ — كذلك لا يفرقون بين النَّهْش والنَّهس ، ويرى ابن الجوزى أن النهش يكون بالأضراس والنهس بالأسنان . والمروى عن الأصمعى أنه لا فرق بين النَّهْش والنهْس (٢٨) .

٣ — لا يفرق عامة بغداد بين القَبْض والقَبْص ، ويرى بعض اللغويين أن القبض خاص بحالة إمساك الشيء بجُمع الكف . أما القبص فيكون بأطراف الأصابع . ولكن فى « الإبدال » لأبى الطيب :

« ويقال : قبض قبضة ، وقبص قبصة بمعنى ، وبعضهم يقول القبصة أصغر من القبضة ، وقرأ الحسن : (فَقَبَصْتُ قَبْصَةً من أثَرِ الرَّسُولِ) (٢٩) .

٤ — لا يفرق عامة صقلية بين الجنب والجانب ، والأمَّهات والأمَّات . ويقول ابن ابن مكى : إن الجنب للحيوان والجانب ناحية كل شيء . والأمهات للآدميين ، والأمَّات للحيوان ، وفى الصحاح : « الجنب والجانب بمعنى » و « الأمهات والأمَّات بمعنى » . ونحن لا ننكر أن بعض اللغويين يقول بالتفرقة ، ولكن الذى ننكره هو الاقتصار على هذا الرأى وحده .

٥ — لا يفرق عامة صقلية بين اللَّبَن واللِّبان ، قال ابن مكى : إنما يقال : لبن الشاة ولبان المرأة (وهو مصدر : لابَن) ، والتفرقة قول ابن السكيت (الصحاح : لبن) .

٦ — يجعلون التقييض فى الخير والشر ، فيقولون : لولا أن الله قَيَّضَكَ لى لهلكت .

---

(٢٧) الابدال : ١/١٨٠ والصحاح (حث وحض)
(٢٨) الابدال : ٢/١٦٥
(٢٩) الابدال : ٢/٣٤٦ . والقراءة المشهورة : بالضاد المعجمة . (سورة طه : الآية ٩٦)

ويرى ابن مكى أن التقييض لا يكون إلا فى الشر ، وهو قول بعض اللغويين وأنكره ابن برّى . (اللسان : قيض) .

٧ — لا يفرق أهل بغداد بين العُش والوكْر والوَكْن ، أى يعدونها مترادفة ، وقال ابن الجوزى فى رده :

« العش ما كان من عيدان ، والوكْر والوَكْن لما كان نَقْبا فى جبل أو حائط » (٣٠) . ولا يفرقون بين الغيث والمطر ، ويتبع ابن الجوزى الرأى القائل بأن الغيث ما كان فى أيامه ، والمطر ما كان فى غير أيامه (٣١) . وفى الصحاح : « الغيث : المطر » .

٨ — يجعل عامة بغداد الظعينة اسماً للمرأة ، سواء أكانت فى الهودج أم لم تكن ، وقال ابن الجوزى : الظعينة اسم خاص بالمرأة فى الهودج . وعلى قول العامة قال ابن الأنبارى : « وقد يقال للمرأة وهى فى بيتها ظعينة » (٣٢) .

٩ — يستعمل عامة صقلية كلمة الهوى فى الخير والشر ، ولكن ابن مكى يرى أن الهوى لا يكون إلا فى الشر ، وهو رأى كثير من أهل اللغة . ويبدو أن هؤلاء اللغويين اعتمدوا فى رأيهم على الآية الكريمة : ﴿ وأمّا مَن خافَ مَقامَ رَبِّه ونَهَى النفسَ عَنِ الهَوَى ﴾ (٣٣) ولكن السياق هنا هو الذى جعل معنى الهوى فى الشر ، لأنه هوى النفس الأمارة بالسوء .

١٠ — لا يفرق عامة بغداد بين جلس وقعد ، ويتبع ابن الجوزى الرأى القائل

(٣٠) تقويم اللسان : ١٦٠
(٣١) المصدر نفسه : ١٦٢
(٣٢) الأضداد : ١٦٤
(٣٣) النازعات : ٤٠

أن القعود عن قيام، والجلوس عن حالة دون الجلوس، كالنوم والسجود وهذه التفرقة رأى لبعض اللغويين (٣٤) ، وقال الجوهرى : « القعود : الجلوس » .

إلى غير ذلك من الأمثلة التى أوردناها فى دراسة كل كتاب ، تحت عنوان « تعميم الدلالة » ونقول فى تفسيرها ما أوردناه من قبل :

« إن الناس فى حياتهم العادية يكتفون بأقل قدر ممكن من دقة الدلالات وتحديدها ، ويقنعون فى فهمهم للدلالات بالقدر التقريبى الذى يحقق هدفهم من الكلام والتخاطب ، ولا يكادون يحرصون على الدلالة الدقيقة المحددة التى تشبه المصطلح العلمى » (٣٥) .

ويضاف إلى هذا ويؤيده أن الفروق الدقيقة بين الكلمات المتقاربة صوتياً أو المترادفة ، ليست موضع اتفاق بين اللغويين ، أى أن بعضهم سمع بعض العرب يعممون هذه الدلالة ولا يفرقون هذه التفرقة الدقيقة .

٣ — المظهر الثالث : انتقال مجال الدلالة :

ويشمل هذا المظهر نوعين من تطور الدلالة :

(ا) انتقال مجال الدلالة لعلاقة المشابهة بين المدلولين (٣٦) ، أى بسبب الاستعارة .

ويوضحه « ستيفن أولمان » بقوله : « إننا حين نتحدث عن عين الإبرة نكون قد استعملنا اللفظ الدال على عين الإنسان استعمالا مجازياً . أما الذى سوغ لنا ذلك فهو شدة التشابه بين هذا العضو والثقب الذى ينفذ الخيط

---

(٣٤) راجع الصاحبى : ٩٦ ؛ ٩٧

(٣٥) دلالة الالفاظ : ١٥١

(٣٦) دور الكلمة فى اللغة : ١٦٨

من خلاله » (٣٧) .

والاستعارة من سنن العرب على حد تعبير أحمد بن فارس (٣٨) ، فاض بها وبغيرها من المجاز شعرهم ونثرهم ، حتى قال ابن جنى « اعلم أن أكثر اللغة مع تأمله مجاز لا حقيقة » (٣٩) .

وفى ضوء هذا نفسر استخدام عامة الأندلس كلمة القلادة فى معنى الحزام. وهى ما يحيط بالعنق . وفى المدلولين تشابه ،فالحزام يحيط بالوسط ، كما تحيط القلادة بالعنق .

وقولهم لذباب يلسع : الدَّبَران . والدَّبْر هو الزُّنْبور ، وإنما استعير اللفظ الدال على الزنبور للدلالة على هذا الذباب الذى يلسع لعلاقةالمشابهة بينهما فى اللسع .

ومن الاستعارة أيضاً قولهم للمتهم بالخبيث : مُخَنَّث ، لعلاقة المشابهة من حيث إن فى كل منهما تكسرًا ورخاوة .

ومن الاستعارة قول عامة الأندلس وصقلية لبعض بسط الصوف : حنبل : وأصل الحنبل : الغَرْو . والعلاقة هنا هي نعومة هذه البسط وشبهها بالفرو الذى هو الحنبل.

ومنها قول عامة الأندلس وصقلية أيضاً : وجدنا لهذا الطعام بَنَّة أى طيب مذاق . ومعنى البَنَّة الرائحة . وقد سوغ الاستعارة هنا التشابه فى الشعور نحو طرفى الاستعارة فهذا طيب فى الذوق ، وذاك طيب فى الشم. قال : « ستيفن أولمان » : « وهناك نوع آخر من الاستعارات يعتمد على التشابه فى الشعور

---

(٣٧) دور الكلمة فى اللغة : ١٦٨

(٣٨) الصاحبى : ٢٠٤

(٣٩) الخصائص : ٢/٤٤٧

نحو جانبى الاستعارة ؛ وفى نوع الإحساس بها ، أكثر من اعتماده على التشابه فى الخصائص الجوهرية » (٤٠).

ومن الاستعارة قول عامة بغداد للفاجرة : مُتَفَتِّية ، والمتفتية هى الفتاة المراهقة . والذى سوغ انتقال الدلالة هو ما يبدو من كلتيهما من نزق وطيش فى غالب الأحيان .

وقول عامة صقلية لما نتأ فى جسم الإنسان من علة أو مهنة : درَن، يعد من الاستعارة أيضاً . ذلك أن معنى الدرن الوسخ ، وهذه البثور الناشئة فى الجسم تعد من الوسخ أيضاً .

ومن الاستعارة قول عامة المشرق : جاء الفرس يركض أى يجرى . وهو من قولهم : ركض الطائر إذا حرك جناحيه فى الطيران (٤١) ، فالعلاقة السرعة . ولكن ابن الجوزى وقبله ابن قتيبة والحريرى حكموا بخطأ هذا التعبير ، لأنهم اعتبروه من :ركض الراكبُ الفرسَ برجله ، فالفرس مركوض لا راكض ، ويمكن أن يكون هنا مجاز عقلى أى يركض صاحبِه ، على حد:« عيشة راضية » أى مرضية أو راضٍ صاحبها .

ومنها قول عامة صقلية للكراكىّ : الغرانيق . والغُرْنَيْق طير الماء . فالكركى يشبه الغرنيق (٤٢) .

(ب) انتقال مجال الدلالة لعلاقة غير المشابهة بين المدلولين (٤٣) ، وهو المجاز المرسل.

---

(٤٠) دور الكلمة فى اللغة : ١٧٠
(٤١) الصحاح (ركض)
(٤٢) شرح اشعار الهذليين : ١٣٤
(٤٣) دور الكلمة فى اللغة : ١٧٣

ويوضحه « ستيفن أولمان » بقوله: « الكلمة : bureau (مكتب) قد يكون معناها اليوم : المكتب الذى يجلس إليه الإنسان ويكتب عليه ، أو المصلحة الحكومية أو المكان الذى تدار منه الأعمال . ومن الواضح أنه ليست هناك مشابهة بين المدلولين ، ولكن بينهما ارتباطاً من نوع آخر ، فالمكتب الذى نكتب عليه يوضع عادة فى الأماكن التى تدار منها الأعمال . وعلى هذا فالفكرتان مرتبطتان ، بعضهما ببعض ، فى ذهن المتكلم ، أو قل إنهما تنتميان إلى مجال عقلى واحد . هذا هو التفسير النفسى لذلك النوع من المجاز المعروف بالمجاز المرسل metonymy (٤٤) والمجاز المرسل طريق معترف به من طرق التطور الدلالى ، وقد نقلنا فى أول هذا الفصل تفسير أبى بكر الزبيدى لقول أبى نصر وأبى عمرو الشيبانى : إن الكير هو الزق الذى ينفخ به الحداد ، وقوله : « وهو مما لا يصح عندى إلا على وجه تسمية الشىء بما قرب منه وما كان من سببه ، كما قالوا راوية للمزادة ، والراوية البعير الذى يستقى عليه الماء » أى أن فى إطلاق الكير على زق الحداد وفى إطلاق الراوية على المزادة مجازاً مرسلاً ، وهو أشهر من أن يستدل عليه . ولكن عيب اللغويين أنهم وقفوا عند حد معين فى انتقال الدلالة ، ولم يفسحوا المجال أمام التطور الدلالى المبنى على العلاقات بين المدلولين ، كهذا النوع الذى نحن بصدده . وعلينا الآن أن نبين علاقات المجاز المرسل ، التى نخرج على كل منها ما يمكن تخريجه مما عده أصحاب الكتب الثلاثة من لحن العامة :

١ — السبيبة : ويخرج عليها قول عامة الأندلس للبيت المحسَّن : بَلاط . والمعنى الأصلى للبلاط : الحجارة المفروشة . ولكن وجود البلاط فى هذا البيت ، سبب فى تحسينه وتجميله .

ومن ذلك قولهم للذى يقلع عن الشرب فيصيبه صُداع : مشمول بدل : مخمور

---

(٤٤) دور الكلمة فى اللغة : ١٧٣

أى أصابه الخُمار الذى يصيب من يقلع عن الشرب . . . والعلاقة أن هذا الصداع إنما أصابه بسبب إدمانه من قبل على الشَمل أى السُكْر ، وهو رد فعل له .

٢ — المجاورة : تعد المجاورة فى المكان من عوامل انتقال الدلالة وهى إحدى علاقات المجاز المرسل ، ومنها : قول عامة صقلية للأنف : خُرطوم والخرطوم هو الأنف ، وقولهم لمؤخر الرِّجل : قدَم . وهو مقدَّم الرجل والأصابع .

ومنها قول عامة الأندلس وصقلية للقطعة تخاط بجانب القميص : بَنيقة ، والبنيقة هى اللبنة التى فيها الأزرار . وإنما سميت كذلك لأنها تبنق القميص أى تحسنه

وبسبب المجاورة انتقل معنى الراوية من الدابة التى يستقى عليها إلى المزادة ، عند عامة المشرق (٤٥) .

ومن علاقة المجاورة أيضاً : إطلاق عامة الأندلس الحِمْلاق — وهو باطن الجفن — على حَدَقة العين . وتسمية عامة المشرق الشعر النابت على الأجفان : أشفارًا ، والأشفار حروف الأجفان .

ومنها قول عامة المشرق : قبل أن تقطع سُرتك ؛ يريد من قبل أن يقطع سرَرُك وهو الجزء الذى يقطع . أما السرة فالموضع الذى قطع منه .

ومن المجاورة قول عامة الأندلس وصقلية للشقاق المخيطة بالقُبَّة : أطناب والأطناب هى الحبال التى يشد بها فى الأوتاد .

---

(٤٥) هذا المثال ورد فى تلخيص المفتاح للخطيب القزوينى لبيان علاقة المجاورة فى المجاز المرسل (شرح التفتازانى : ١٧٣) . وفى الصحاح (روى) : « والعامة تسمى المزادة : راوية . وذلك جائز على الاستعارة » . وراجع أيضا : الحيوان ١/٣٣٣

وهناك نوع من المجاورة الزمنية يصلح أن يكون من علاقات المجاز المرسل، كقول عامة بغداد : أزف الوقت أى حضر ووقع بدل: أزف أى قرب ، لأن قربه يؤذن بوقوعه، وربما عد هذا مبالغة كأن الوقت القريب أصبح واقعاً لإثارة الاهتمام والاستعداد .

٣ — الزمانية : ويخرج على ذلك قول عامة الأندلس : يوم شات أى مَطير ، وذلك أن فصل الشتاء هو زمن المطر غالباً .

٤ — المحلية : ومنها أن أهل الأندلس يسمون المكان المنفرد : حَشَرًا ، والحشَر القوم يبيتون مكانهم ولا يرجعون لأهلهم ، وتوضيح هذه العلاقة أن الذين لا يرجعون لأهلهم إنما يبيتون فى مكان منفرد، فقولهم الحشَر أى مكان الحشر .

ومن ذلك قول عامة بغداد: أكلنا مَلَّة ، بدل: خبز مَلَّة ، فالملة : الرماد الحار . وقد تولى الجاحظ توجيه ما تقوله العامة بقوله :« ومن هذا الباب (التسمية باسم المكان) : المَلَّة ، والملة موضع الخبزة ، فسموا الخبزة باسم موضعها ، وهذا عند الأصمعى خطأ » (٤٦) .

٥ — الآلية : ومن هذه العلاقة أن أهل الأندلس وصقلية يسمون الخشب الذى تديره الدابة إذا سَنَت : سانية ، والدابة هى السانية . فأطلق اسم السانية على آلة السَّنْو . وكذلك قول عامة بغداد إن حُمَة العقرب والزنبور هى الشوكة التى تلسعان بها ، على حين أن الحمة هى السم. والعلاقة أن الشوكة هى العضو الذى عن طريقه ينبث العقرب والزنبور سمهما، فلهذا سميت الشوكة حُمَة . ويحتمل أن تكون العلاقة هى المحلية أى أن الشوكة محل السم .

---

(٤٦) الحيـــوان : ١/٣٣٣

٦ — اعتبار ما كان : ومنه إطلاق العشب على الحشيش اليابس ، فهو عشب عند أهل صقلية والمشرق باعتبار ما كان قبل أن يصير حشيشاً يابساً .

٧ — اعتبار ما سيكون : ويخرج على ذلك قول عامة الأندلس للعنب أول ما يعصر : مُصطار ، والمُصطار الخمر التى فيها حموضة . . . فالمصطار سيؤول إلى خمر فيها حموضة وهومثل قوله تعالى : (إنِّى أرانِى أعْصِرُ خَمْرًا) (٤٧) .

ومن ذلك قول عامة صقلية : قَرَّص العجين أى بسطه ، والتقريص فى اللغة : تقطيع العجين ليبسط . والعلاقة أنه سيؤول إلى البسط على كل حال .

ومن ذلك تسمية عامة صقلية والمشرق للكلأ الأخضر : الحشيش ، والحشيش هو اليابس من الكلأ ، والعلاقة أن الأخضر سيؤول إلى يابس .

مظاهر أخرى :

وهناك مظاهر أخرى للتطور الدلالى ، كرقى الدلالة وانحطاطها (٤٨) والتحول نحو المعانى المضادة (٤٩) ، وغير ذلك (٥٠) ، ولكننا اكتفينا بالمظاهر التى اقتضتها ضرورة تفسير ما بين أيدينا من تطور فى الدلالة عدَّهُ أصحاب الكتب الثلاثة من لحن العوام .

* * *

(٤٧) سورة يوسف : ٣٦

(٤٨) دلالة الألفاظ : ١٥٣ — ١٥٤

(٤٩) علم اللغة للسعران : ٣١٠

(٥٠) راجع دور الكلمة فى اللغة لستيفن أولمان : ١٧٤ — ١٧٧